التصوف بين المؤيدين والمعارضين

الدكتور كمال بوزيدي

الحمد لله الذي خلق الانسان ليبلوه هل يشكر أم يكفر وأشهد ألا إله إلا الله الذي توعد من عاد وليه بالحرب وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، القائل : "الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد :

فإن التصوف ليس ظاهرة جديدة اليوم بل هو اتجاه يوجد في بعض الأديان أكثر منه في أديان أخرى. فمثلا نجد في الهند عددا كبيرا من الفقراء يهتمون بالناحية الروحية اهتماما كبيرا، بينما لا يهتمون بالجسد، وهذا في نظرهم عبارة عن تعذيب للجسد حتى تترقى روحهم.

والمسيحية عندهم ما يسمى بالرهبانية وهو أيضا عبارة عن حرمان الجسد من بعض حقوقه الفطرية وهناك في دول أخرى ظهرت نزعات روحية متطرفة على حساب الناحية الجسمية، والاسلام لما جاء، أتى بتوازن بين

الجسم والروح والعقل وأوجب على المسلم أن يحافظ على هذا التوازن بإعطاء كل ذي حق حقه ولنا في عبد الله بن عمرو بن العاص المثال لما كان يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام وترك حق زوجته في الفراش وواجباته الزوجية ؛ أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطي كل ذي حق حقه بقوله : " يا عبد الله إن لعينك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه". والصوفية ظهرت يوم تغلب على المسلمين الجانب المادي على الجانب الروحي والعقلي.

فلما اتسعت الفتوحات وكثرت الأموال وازدهرت الحالة الاقتصادية، نتج عنها غلو في الجانب المادي، وتبعه الغلو في الجانب العقلي، حتى أصبح الايمان عبارة عن فلسفة وجدل لا يغذي الانسان روحيا كما أن الفقه اهتم بالجانب الظاهر وأهمل الجانب الباطن بحيث اهتم بالعبادات ولم يهتم بروحها. فظهرت الصوفية في هذه الفترة من الزمن قصد تغطية الفراغ الروحي الذي لم يستطع أن يشتغل به المتكلمون ولا أن يهتم به الفقهاء وأصبح الناس عندها يحتاجون إلى تغذية الجانب الروحي، فكانت الصوفية هي الحل لذلك. فاعتنوا بالباطن وتركوا الظاهر وأعطوا الأولوية لأعمال القلوب واهتموا بها أشد الاهتمام.

ولكن مما يلاحظ أن أصحاب الصوفية في بداية نشأتها التزموا بالكتاب والسنة، كما كانوا واقفين عند حدود الشرع مطاردين للبدع والخرافات في الفكر والسلوك. فتاب على أيدي مشايخهم عدد كبير من الناس وخلفوا ثروة ضخمة من المعارف في الجانب الروحي ولا ينكر هذه

الحقيقة إلا مكابر لا يتعرف بحقوق الناس أو متعصب عليهم. كما أننا نستطيع أن نأخذ من الصوفية الجوانب الإيجابية كالالتزام بالطاعات وتحفيز الناس على محبة بعضهم لبعض ومعرفة عيوب النفس وإغوائها وانحرافاتها، وكيف نعالجها، والاهتمام بالأمور التي ترقق القلوب وتذكر بالآخرة، ولكن لا يمكن تحقيق ذلك إلا بميزان الشرع.

وبعد هذه المقدمة سأشرع في الكلام على التصوف بناء على الخطة التالية :

تعريف التصوف - أهم مزالق التصوف - أصول التصوف - بعض المسائل المتعلقة بالتصوف - موقف العلماء من التصوف.

تعريف التصوف

- **تعريف إبراهيم بن أدهم رحمه الله** : " التصوف بأن تنقطع إلى ربك وتستأنس إليه بقلبك وعقلك، وجميع جوارحك، حتى لا ترجو إلا ربك ولا تخاف إلا ذنبك وترسخ محبة الله في قلبك".

- **تعريف حجة الاسلام الامام الغزالي رحمه الله** : " هو تجريد القلب لله تبارك وتعالى واحتقار ما سواه وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح".

- **تعريف محمد عبده** : "هو تقويم الاخلاق وتهذيب النفوس وترويضها بأعمال الدين وجذبها إليه وجعله وجدانا لها وتعريفها بحكمه وأسراره بالتدريج".

– **تعريف ابن خلدون** : "هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله عز وجل، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة مال وجاه والانفراد عن الخلق إلا للعبادة"

أهم مزالق وانحرافات الصوفية

1. اعتبار الالهام مقياسا في معرفة الحسن والقبيح وتمييز الصحيح من الخطأ حتى أن بعضهم يقول : "حدثني قلبي عن ربي" بينما علماء السنة يقولون حدثني فلان عن فلان... عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2. تفريقتهم بين الطريقة والشريعة والطريقة عندهم أفضل من الشريعة فكأنهم يفضلون مشايخ الطريقة على علماء الشريعة والأفضلية تكون بالعلم وبالتقوى وبالعمل الصالح وبشهادة العلماء الراسخين في العلم والمخلصين لله.

3. طلقوا الدنيا واحتقروها، وفي الحقيقة أن الدنيا خلقت للبشر حتى يمتحنوا فيها، فهي جسر للآخرة فينبغي الاستفادة منها وترك ما يفسد. وهذا مصداقا للأثر : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

4. غرس في نفوس الناس السلبية مما دفع عددا كبيرا من الناس يحسون بأنفسهم كأنهم مسيرون وليسوا مخيرين وهذا ما أدى بالأتباع إلى الانهزامية في حياتهم.

فهذه الأفكار قبلت على أساس أنها من الاسلام والاسلام منها بريء وعلى كل فالمنصفون من أهل التصوف يعترفون أنه دخل الكثير من الأمور لا تمد صلة بهذا العلم من أجل ذلك اشترط العلماء لقبول هذه الطرق أو مناهج الصوفية أن توزن بميزان الشرع أي ما كان له سند من الكتاب والسنة فهو مقبول وما كان مخالفا لهما فهو مذموم.

بعض المسائل المتعلقة بالتصوف

1. يدعي بعض من ينتمي إلى طريقة من طرق الصوفية أن الشيخ هو خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن هذه الخلافة أخذها في المنام حيث أن الشيخ يرى الرسول عليه الصلاة والسلام في منامه قائلا له : "أنت خليفتي في الأرض" فيصبح الشيخ بعد ذلك من أهل الكشف ومن أهل الكرامات كما أنه يرى النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم وإذا قيل لأصحاب بعض هذه الطرق لماذا لم يحصل هذا الأمر لعلماء الشريعة ؟ قالوا : نحن أهل الطريقة والعلماء هم الشريعة.

- أما الخلافة بهذه الطريقة فنحن نعلم في الأصول أن الالهام أو المنام لا يبنى عليه عمل لأنه ليس دليلا من الأدلة المعتمدة شرعا.

- أما رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم ممكن جدا وهو خاص لعباد الله الصالحين.

- أما الكرامات فهي معروفة عند أولياء الله الصالحين وهذه ميزة خصها الله لبعض عباده الذين ارتقوا بأعمالهم وسلوكهم إلى درجة

أهلتهم لهذه المرتبة الرفيعة والايمان بكرامات الأولياء من أصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة قال الامام الطحاوي : " نؤمن بما جاء من كرامات وصح عن الثقاة من رواياهم". (شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص. 494، طبعة الكتاب الاسلامي). وقال العالم الجلال المحلي : "وكرامات الأولياء وهم العارفون بالله حسبما يمكن المواظبون على الطاعات المجتنبون للمعاصي المعرضون عن الانهماك في اللذات والشهوات حق وواقعة كجريان النيل بكتاب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول ابن تيمية معترفا بالكرامات هذه : "... لهذا يكون بعض هؤلاء يجري على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه، تكون من كرامات الأولياء" (الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج. 1، ص. 194). وعليه فالإيمان بكرامات الأولياء مما أجمعت عليه الأمة الاسلامية واعتبروه علماء العقيدة أصلا من أصول الاعتقاد وإنكارها قد يخل بصحة فهم العقيدة الصحيحة.

أما القول فلنا الطريقة وللعلماء الشريعة، فهذه تحتاج إلى دليل شرعي معتبر يبين لنا هذه التفرقة بين المصطلحين. وعليه فالطريقة الصحيحة والثابتة عند أهل العلم قديما وحديثا، هي طريقة الأذكار المعروفة في القرآن والسنة ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح وهذا المعنى هو أصل التصوف المعتدل في بداية نشأته فأصبح علما قائما بذاته كسائر العلوم ثم دخلت عليه أمور بعضها دعم المسلك والبعض الآخر هو من الدخيل عليه والتصوف منه بريئ.

وأما الالتزام ببعض الأوراد والأذكار التي يأخذها المرء عن شيخ الطريقة فإن كانت تتفق مع الكتاب والسنة فهي مقبولة شرعا ويكون الشيخ بمثابة المرشد أو الموجه يجوز التزام تلك الأذكار عن طريقه أو عن آخر ولو كان دونه بشرط ألا يتخذ ذلك الشيخ كواسطة بينه وبين الله لأن الوسائل المشروعة هي الطاعات والعبادات والأعمال الصالحة.

وأما تقبيل يد الشيخ العالم الصالح الورع فيجوز ذلك له وللسلطان العادل والوالدين والأستاذ وكل من يستحق الاحترام والتقدير والتعظيم والاكرام فقد صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : "فدنونا من النبي صلى الله عليه وسلم فقبلنا يده الشريفة" وقد أجمعت المذاهب الفقهية على جواز تقبيل يد العالم الصالح لدينه وقد صرح بعض الفقهاء على أن تقبيل يد العالم الصالح هو على سبيل التبرك والكرامة وقد قال سفيان الثوري رضي الله عنه : " تقبيل يد العالم والسلطان العادل سنة فقام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه فقبل رأسه" (البحر الرائق لابن نجيم ج. 8، ص. 221).وأما تقبيل يد من ليس من أهل الفضل والكرامة والاكرام فلا يرخص فيه وهذا ما قرره سفيان الثوري رضي الله عنه.

وقد أجاز المالكية تقبيل يد العالم والشيخ والسيد والوالد وهو ظاهر المذهب. (الفواكه الدواني للنفراوي ج. 2، ص. 326.) وأما الشافعية فقد أجازوا القيام لمن كانت فضيلته ظاهرة كعلم أو صلاح أو شرف أو ولاية ويكون هذا القيام للإكرام لا للرياء والإعظام وعلى هذا استمر عمل السلف للأمة. (المجموع للنووي ج. 4، ص. 476، 477).

وعليه فعلماء الشريعة استحبوا تقبيل يد العالم الصالح الحي وغيره من الأمور الدينية، كزهد وعلم وشرف كما كانت الصحابة تفعله مع النبي عليه الصلاة والسلام كما روي ذلك في الصحاح وأما تقبيل اليد من أجل الشوكة أو الوجاهة عند أهل الدنيا بالدنيا وغير ذلك فمكروه عند المالكية والحنفية والشافعية (أسنى المطالب للشيخ زكرياء الانصاري ج. 3، ص. 114). و(العناية شرح الهداية لمحمد بن محمود البابرني ج. 10، ص. 52). أما الحنابلة فقد أجازوا تقبيل يد العالم والكريم والسيد لسلطانه. (الآداب الشرعية لابن مفلح ج. 2، ص. 260).

أصول التصوف

1. تقوى الله في السر والعلانية.
2. اتباع السنة في الاقوال والافعال.
3. الاعراض عن الخلق في الاقبال والادبار.
4. الرضى عن الله في القليل والكثير.
5. الرجوع إلى الله في السراء والضراء.

موقف العلماء من التصوف

1. الرافضون للتصوف

وأشهر العلماء الذين أنكروا على الصوفية : ابن رشد (ت. 595 هجرية). ابن تيمية (ت، 728 هجرية)، وابن الجوزي ت. 597 هجرية). فقد

استنكروا على أهل الصوفية الالهام حيث قالوا لا يمكن التفرقة بين الحق والباطل به، كما أنكروا عليه قضية المكاشفات إذ هي أمر مشكوك فيه فلا يعتد به كما لا يعدل به عن العلم المنقول ومنه السنة. ورد الرافضون للتصوف هذا على مزاعم الصوفية الذين يجعلون المشايخ معصومين من الزلل والأخطاء والذنوب واقموا بعض الصوفية بأنهم لم يفهموا حقيقة التصوف كما يجب ففهموا التوكل بمعنى التواكل وغير ذلك.

2. موقف المؤيدين للتصوف

1. يروي ابن عابدين عن أبي حنيفة أنه" فارس في هذا الميدان، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس وقد وصفه بذلك عامة السلف (حاشية ابن عابدين ج. 1، ص. 42).

2. قال الامام مالك : " من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق" (تنوير القلوب للشيخ أمين الكردي ص. 440).

3. قال الامام الشافعي : " حبب إلي من دنياكم ثلاث : " ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف والاقتداء بطريق التصوف (مقدمة النووي في شرح المهذب).

وأما الامام أحمد فكان مصاحبا لأحد الصوفية في بغداد فقال لولده : "عليك بهؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشيةوالزهد وعلو الهمة".

وفي الأخير نقول فما أحوجنا إلى القلب السليم والرجال الصالحين ودعاة مؤمنين لم تستعبدهم الأهواء والشهوات اتصفوا بصفات عباد الرحمن وتخلقوا بأخلاق الإحسان فإنهم إن لم يقدروا على تحويل الأخطار الداخلية والخارجية من الأمراض الخلقية والاجتماعية والسياسية والدينية وخطر المادية الجارفة والانحطاط الخلقي والروحي فيستطيعون بمشيئة الله أن يردوا على ذلك الزحف المعارض لكل المبادئ الدينية على الأقل أو أن يبطئوا سيره وينقذوا ما يمكن نقذه من تأثيره على الأمة. فبالصفوة لهذه الأمة وعلمائها المخلصين وقادها الراشدين، القائمين بحراسة الدين ودنيا الناس تكون الأمة بخير إن شاء الله تعالى. فالله نسأل أن يسخر لنا علماء مخلصين لكي يكونوا لنا النموذج الصالح والمثال العملي في الأخلاق والسلوك ليأخذوا بأيدي الأجيال الصاعدة إلى ما فيه صلاح وفلاح وخير أمرهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على خير البرية أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أهم مراجع هذا البحث

كتب المذاهب الفقهية المعتمدة- كتب الفتاوى الشرعية – كتب السنن والمصنفات – نظرات في التصوف (ص. 21) الدكتور محمد القهواجي – دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2004م.